وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾[1].

فالمسجد الحرام أسس على التقوى من أوّل يوم أحق أن تقوم فيه، ثم مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وما أشبه، ولا مكانة لسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وإمارته للمشركين أمام عمارة الإيمان وإمارته، وحضور المؤمنين فيه تطبيقاً لشعائر الله.

ومهما نزلت الآية - بين منازل النزول - في عباس وشيبة وعلي عليه السلام ترتيباً عملياً بينهم: سقاية الحج وعمارة المسجد الحرام ومن آمن بالله ولكنها طليقة بين الجانبين، ثم ظاهر المقابلة أن سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كانتا لمن هو يقابل الجانب الآخر مهما كان له إيمان، فقد قيل إن علياً عليه السلام قال للعباس: يا عم ألا تهاجر؟ ألا تلحق برسول الله صلى الله عليه وآله؟

فقال: ألست في أعظم من الهجرة؟ أعمر المسجد الحرام وأسقي حاج بيت الله فنزلت هذه الآية[2].

---

(١) سورة التوبة، الآيات: ١٠٧-١١٠.

(٢) نور الثقلين ٢: ١٩٤ في مجمع البيان قيل: إن عليّاً عليه السلام: . . ومثله في الدر المنثور ٣: ٢١٨ عن عبد الله بن عبيد قال قال علي عليه السلام: وفيه روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن ابن بريدة عن أبيه قال: بينما شيبة والعباس يتفاخران إذ مر بهما علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: بماذا تتفاخران؟ فقال العباس: لقد أوتيت من الفضل ما لم يؤت أحد، سقاية الحاج، وقال شيبة: أوتيت عمارة المسجد الحرام فقال علي عليه السلام: استحييت لكما فقد أوتيت على صغري ما لم تؤتيا، فقالا: وما أوتيت يا علي؟ فقال: ضربت خراطيمكما بالسيف حتى آمنتما بالله فقام العباس مغضباً يجر ذيله حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: =

وهنا «سقاية وعمارة» مصدران تقابلان بـ«من آمن»؟ ولا تقابُلَ بين مصدر وفاعل!، علّ القصد منهما بصورة المصدر هو سيرة الفاعل لهما، أنهما أصبحا سقاية وعمارة حيث أصبح كيانهما ككل إياهما دون اعتبار لسواهما من منازل الكمال مكانةً، ولكن من ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وإن لم يصبح كيانه ككل إياها فهو أفضل من الأولين، فالإيمان القليل أفضل من كثير السقاية والعمارة وعمارة المسجد الحرام ممن لا يؤمن، كما وأن الإيمان الأكثر دون سقاية وعمارة هو أفضل من الأقل بكل سقاية وعمارة للمسجد الحرام.

فما أحسنه تعبيراً قاصداً لمثل هذه العناية الأدبية الرقيقة المنبِّهة لموقف الإيمان أمام سواه.

= أما ترى إلى ما استقبلني به علي؟ فقال: ادعوا علياً فدعى له، فقال: ما دعاك إلى ما استقبلك به عمك،؟ فقال: يا رسول الله ﷺ صدمته بالحق فمن شاء فليغضب ومن شاء فليرض فنزل جبرئيل عليه السلام وقال: يا محمد ربك يقرئك السلام ويقول اتل عليهم ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ [التوبة: ١٩] وفيه عن تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: يا أمير المؤمنين أخبرنا بأفضل مناقبك، قال: نعم كنت أنا وعباس وعثمان بن أبي شيبة في المسجد الحرام، قال عثمان: أعطاني رسول الله ﷺ الخزانة يعني مفاتيح الكعبة، وقال العباس: أعطاني رسول الله ﷺ السقاية وهي زمزم ولم يعطك شيئاً يا علي، قال: فأنزل الله ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾.

وفي الدر المنثور ٣: ٢١٨ - أخرج ابن مردويه عن الشعبي قال كانت بين علي والعباس منازعة فقال العباس لعلي عليه السلام: أنا عم النبي وأنت ابن عمه وإلى سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام فأنزل الله هذه الآية، وفيه أخرج مسلم وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن النعمان بن بشير قال: كنت عنه منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام وقال آخر: بل والجهاد في سبيل الله خير مما قلتم فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ولكن إذا صليتم الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم، فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾.

ونظيرة الآية في مقابلة الفعل بالفاعل ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ...﴾[1].

ذلك فـ ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾: سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كأصل، ومن آمن بالله كأصل آخر، وإن كانا من المؤمنين، حيث الرجاحة دائماً هي لأصل الإيمان قبال الكفر، ولفاضل الإيمان قبال مفضوله دون أية فضيلة أخرى وجاه الإيمان ولواحقه.

ثم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مهما كانوا سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، وهو يهدي المؤمنين وإن لم يسقوا الحاج ولم يعمروا المسجد الحرام.

وقد يدل قرن «من آمن» بـ ﴿سِقَايَةَ﴾ على عدم إيمان من نزلت الآية نكاية به[2]، وكما ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تؤيده، أم يعني معه كامل الإيمان أمام ناقصه تبييناً أن الإيمان بملحقاته هو - فقط - سند الفضيلة والأفضلية بمراتبه أمام فاقديها.

إذاً فـ ﴿أَجَعَلْتُمْ﴾ تشمل إلى جعْلِ المشركين جعلَ بسطاء من المؤمنين، هكذا جعل جاهل قاحل، وكما يتأيد كَلٌّ بمختلف ملامح الآية وما بعدها.

وقد أصفق الفريقان في روايتهم المتواترة أن الآية نزلت بشأن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام مثلاً عالياً للإيمان والجهاد، أمام من يفتخر بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، نذكر منهم عجالة تسعة عشر من الفطاحل

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢١٨ عن ابن عباس قال قال العباس حين أُسر يوم بدر: إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني فأنزل الله هذه الآية. وعن ابن عباس أن المشركين قالوا: عمارة بيت الله والقيام على السقاية خير من الإيمان والجهاد فذكر الله خير الإيمان به سبحانه البيت والجهاد مع نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على عمران المشركين وقيامهم على السقاية.

كنماذج عن عشرات[١] بكلمة واحدة مشركة بينهم كما في الجمع بين الصحاح الستة من رواية الجمهور:

أنها نزلت فيه عليه السلام لما افتخر طلحة بن شيبة والعباس فقال طلحة: أنا أولى بالبيت لأن المفتاح بيدي، وقال العباس: أنا أولى أنا صاحب السقاية والقائم عليها، فقال علي عليه السلام: أنا أولى الناس إيماناً وأكثرهم جهاداً، فأنزل الله هذه الآية.

أجل وإنه لا مفاضلة ولا مفاصلة إلّا في مثلث: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والجهاد في سبيله، دون سائر المفاضلات والمفاصلات أو المعادلات المزعومة، وكما تعلمنا كلمة واحدة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٢] وترى كيف ترك هنا الإيمان بهذه الرسالة السامية وهي أصل للجهاد في سبيل الله؟

---

(١) كما في ملحقات إحقاق الحق ٣: ١٢٤ - ١٢٧، ممن أخرجه الثعلبي في تفسيره كما في العهدة لابن بطريق (٩٨) والواحدي في أسباب النزول (١٨٢) والخازن في تفسيره (٣: ٥٧) والبغوي في معالم التنزيل المطبوع بهامش تفسير الخازن (٣: ٥٦) وابن المغازلي في مناقبه وابن الأثير في جامع الأصول (٩: ٤٧٧) والرازي في تفسيره (١٦: ١٠) والگنجي في كفاية الطالب (١١٣) والقرطبي في تفسيره (٨: ٩١) والنيسابوري في تفسيره (١٠: ٦٠) وابن كثير في تفسيره (٢: ٢٤١) وابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة (١٠٦) والسيوطي في الدر المنثور (٣: ٢١٨ - ٢١٩) وفي لباب النقول في أسباب النزول (١١٥) والمير محمد صالح الكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي (٤٠) والشبلنجي في نور الأبصار (١٠٥) والشوكاني في فتح القدير (٢: ٣٠٣) والقندوزي في ينابيع المودة (٩٢).
وفي ملحقات الإحقاق ١٤: ١٩٤ - ١٩٩ مستدرك عما في المجلد (٣) هو: الزمخشري في ربيع الأبرار (٤٨٤) وابن المغازلي في المناقب (١١٧) والثعالبي في ثمار القلوب (٥٤٣) والبغدادي في المنتخب من صحيح البخاري ومسلم (٢١٦) والشافعي في المناقب (١٦١) وابن كثير في تفسيره (٤: ٣٥٩) والأبشهي في المستطرف (١: ١٢١) وابن الصباغ في الفصول المهمة (١٠٦) والقنفوري في نزهة المجالس (٢: ٢٠٩) واليزدي في شرح الديوان (١٧٧) والزرندي في نظم درر السمطين (٨٨) والحموييني في فرائد السمطين (٤٨ و٤٩) والأمر تسري في أرجح المطالب (٦٤).

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

علّه لأن هذه الثلاثة لا تتم إلَّا على ضوء هذه الرسالة، ولا سيما الجهاد في سبيل الله، حيث الأولان مستفادان من حجة العقل كخطوة أولى، ولكن سبيل الله فضلاً عن الجهاد في سبيله لا تُعرف إلا بوسيط الوحي الرسولي، وكما هو تكملة لوحي العقل الهادي إلى الله واليوم الآخر.

ذلك، وإذا كانت سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام قضيةَ الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله، فهي محبورة محسوبة بحساب الإيمان، فإنما المقابلة بينهما تعني مجردهما عن الإيمان قبال اللّاإيمان، أم مصحوبهما بقليل الإيمان أمام كثير الإيمان.

فللإيمان بالله موضوعية ليست لسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام إلّا على ضوء الإيمان قدرَه، فلا يقاس تفضيلاً أو تعديلاً بالإيمان إلا نفس الإيمان وهنا ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ﴾ سلب لأفضلية غير الإيمان بأحرى وأولى.

ذلك ولما «أرادوا أن يدعوا السقاية والحجابة قال رسول الله ﷺ: لا تدعوها فإن لكم فيها خيراً»[١] ولقد كان يطلب وهو في المدينة ماء زمزم ليشرب منه[٢] وذلك كرامة للمؤمن الساقي والعامر دون سواه:

ويا لزمزم من بركة ورحمة وشفاء لا توجد لغيرها من عيون الأرض كلها، فطالما وردت عن الرسول ﷺ الوصايا بشأنها[٣].

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢١٩ - أخرج أبو الشيخ عن الحسن في قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ [التوبة: ١٩] قال: أرادوا.

(٢) المصدر أخرج عبد الرزاق والأزرقي عن أبي جريج عن ابن أبي حسين قال: كتب رسول الله ﷺ إلى سهيل بن عمرو إن جاءك كتابي ليلاً فلا تصبحن وإن جاءك نهاراً فلا تمسين حتى تبعث إليّ بماء من ماء زمزم فملأ له مزادتين وبعث بهما على بعير.
وفيه أخرج الدارقطني عن النبي ﷺ قال: خمس من العبادة: النظر إلى المصحف والنظر إلى الكعبة والنظر إلى الوالدين والنظر في زمزم وهي تحط الخطايا والنظر في وجه العالم.

(٣) المصدر أخرج البخاري والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ جاء إلى السقاية فاستسقى فقال العباس: يا فضل اذهب إلى أمك فأت رسول =

و«كان النبي ﷺ إذا أراد أن يُتْحف الرجل بتحفة سقاه من ماء زمزم»(١).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

تتمة من المواصفات للمفضَّلين على سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، وهنا ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ بالنسبة لمن دونهم من المؤمنين حقيقة التفضيل، ولغير المؤمنين مجاراة في التفضيل، أن لو كانت مجرد السقاية والعمارة فضلاً فهؤلاء المؤمنون هم ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ الذي تسقون حاجَّه وتعمِّرون بيته، ففي مثلث المتحملات بين الإيمان وشروطه وغير الإيمان هو أعظم مِن سواه، دون مساواة فضلاً عن تفضيل اللّاإيمان على الإيمان، ثم الإيمان الأكمل أفضل من سواه مهما حمل سواه من فضائل متخيلة.

وهنا «رحمة ورضوان» قبل وقبال «جنات» تدل أنهما فوق هذه

= الله ﷺ بشراب من عندها فقال: اسقني فقال: يا رسول الله ﷺ إنهم يجعلون أيديهم فيه فقال: اسقني فشرب منه ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها فقال: اعملوا فإنكم على عمل صالح لولا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذه وأشار إلى عاتقه، وفيه أخرج ابن سعد عن علي عليه السلام قال قلت للعباس: سل لنا رسول الله ﷺ ألا نأتيك بماء لم تمسه الأيدي؟ قال: بلى فاسقوني فسقوه ثم أتى زمزم فقال: استقوا لي منها دلواً فأخرجوا منها دلواً فمضمض منه ثم مجه فيه ثم قال: أعيدوه ثم قال: إنكم على عمل صالح ثم قال: لولا أن تغلبوا عليه لنزلت فنزعت معكم.

وفيه أخرج المستغفري في الطب عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: ماء زمزم لما شرب له من شربه لمرض شفاه الله أو جوع أشبعه الله أو لحاجة قضاها الله.

وفيه أخرج الطبراني عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ خير ماء على وجه الأرض زمزم فيه طعام من الطعم وشفاء من السقم، وفيه أخرج الديلمي في مسند الفردوس عن صفية عن النبي ﷺ قال: ماء زمزم شفاء من كلّ داء، وفيه عن ابن عباس قال رسول الله ﷺ: آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم.

(١) المصدر أخرج أبو نعيم عن ابن عباس أن النبي ﷺ: . . .

الجنات، فهي جنات معرفية «رحمة» لنا منا بفضل الله، وأخرى روحية من الله فينا «رضوان» ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[١] ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَ�ٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[٢].

ذلك، فهنا «رضوان» بعد «رحمة» هو أفضل مصاديق الرحمة الطليقة، فالمعرفة هي سبيل الرضوان، فهو أصل الرحمة وأثافيُّها، وهنا المعرفة للعبودية والعبودية هي سبيل الرضوان ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٣].

ثم و﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ تعم هذه الثلاثة وبقِمَّتها «رضوان» من الله.

وهنا ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ هو قضية فضله تعالى، فليس العذاب - إذاً - مقيماً لأنه قضية عدله حيث: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾[٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

فإنما الولاية هي ولاية الله بكل أبعادها اللائقة بالله، ثم وفي سبيل ومرضاته ولايةُ أولياء الله، وقضية الإيمان بالله أن ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ فولايتهم أولاء انتقاض للإيمان أو انتقاص من الإيمان ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المنتقضون الإيمان، أو المنتقصون من الإيمان.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥.
(٣) سورة الرحمن، الآية: ١٣.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

وهنا ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ﴾ تعم إلى كفارهم منافقيهم حيث الاستحباب لا يعني مقولة اللفظ فقط، بل هو مقولة القلب ثم القالب له مظهر، فاستحباب الكفر في ثالوثه أم ضلع من أضلاعه استحباب، مهما كان الجمع أغلظ، فإنه للإيمان أرفض.

وليس فقط «لا تتخذوا.. أولياء» بل وحاربوهم على ولاية الله كما تحاربون سائر الكفار دون تمييز، وكما يروى عن الإمام علي عليه السلام: «ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نقتل آباءَنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً ومضياً على اللقم وصبراً على مضض الألم وجداً على جهاد العدو»(١).

أجل وفي مسرح الإيمان بآصرة القلب الواعي تتقلب سائر الأواصر من الدم والنسب والحسب، وتبطل ولاية القرابة في أسرة وسواها، فللّه الولاية الأولى وعلى هامشها ولاية أولياء الله، قدَرَ ما قدره الله، بعيدة عن ولاية الله نفسه حيث هي تخصه ربوبية، كما ولاية الخلق تخصهم عبودية دونما خلطٍ ولا غلطٍ.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

رغبات ثمان تُعرض بمسرح الحب أمام الله ورسوله وجهاد في سبيله، فقضية الإيمان هي أن الأحب إلى صاحبه هو الله أصيلاً، ثم الرسول فصيلاً لرسالته عن الله، ﴿وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ وسيلاً وصيلاً لمرضاته.

فمخمس «آباءكم - أبناءكم - إخوانكم - أزواجكم - عشيرتكم» يحلِّق على كافة الصِّلات النسبية والسببية أماهيه من صلات حيوية، فإن ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾

(١) نهج البلاغة للسيد الشريف الرضي عنه عليه السلام.

تشمل الوالدين، بل والأعمام والأخوال والعمات والخالات، ﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ تشمل البنات إلى الأولاد والأحفاد منهما أو أحدهما، ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ تشمل إلى البعولة الزوجات في مثلثة الزواجات دائمة ومنقطعة وأمة، ثم ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ تعم كل الوصائل والفصائل البعيدة نسبياً وسببياً وودِّياً.

ومثلث ﴿وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا - وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا - وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ تعم كافة الرغبات المالية، حاضرة كـ ﴿وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ ومستحضرة لمستقبل: ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ ثم أمكنة لكم بمن يتصلون بكم، أم لأموالكم، أم لتجاراتكم: ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾.

فقد حلَّقت تلك الثمانية على كل الرغبات الحيوية لنا حيث نعيشها ونعيِّش بها، ونحن في وسط بينها أن نبصر إليها دون نفاذ عنها إلى مرضاة الله فتُعمينا: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أو أن نبصر بها فتبصّرنا فإيمانا بالله وهجرة في الله وجهاداً في سبيل الله، وعلى حد المروي عن الإمام علي عليه السلام بشأن الدنيا و«من أبصر بها بصّرته ومن أبصر إليها أعمته».

هناك في حقل الولاية المحظورة يُذكر فقط «الآباء والإخوان» دون البقية المذكورة هنا، لأنهما - فقط - مسرح الولاية والنفاذ في أمور الإنسان دون الملحقين به العائشين على هامشه، وهنا في حقل الحب يأتي دور البقية مع الآباء والإخوان.

ولأن الحب الأعلى هو للأغلى فليكن الله ورسوله أحب إلى المؤمن حتى من نفسه فضلاً عما سواها، فحين يقول عمر: والله لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلَّا من نفسي - يجيبه: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه»[1].

(١) الدر المنثور ٣: ٢٢٣ - أخرج أحمد والبخاري عن عبد الله بن هشام قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال: والله فقال صلى الله عليه وآله وسلم: لا يؤمن...

ولأن الحب ليس إلّا نحو الكمال فالمحبوب - إذاً - ليس إلا الكمال بمن يحمله، فالأحب هو الأكمل، ففي مثلث حب الإنسان نفسه، وسواها من خلق، وربه، لا ميزان لأصله ولا فصله إلا أصل الكمال وأكمله، إذاً فحب من سوى الله أو ما سواه دونه إلحاد حادٌّ، ثم كون غير الله أحب إليك من الله إلحاد وسط بإشراك، ومن ثم التسوية في الحب بين الله وسواه إشراك خالص، والتوحيد هو أن يكون الله أحب إليك مما سواه، ولكلّ دركات ولتوحيد الحب درجات ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾[1] قالاً وحالاً وأعمالاً، والتوحيد الحق في حب الله هو أن لا تحب إلّا إياه، ثم تحب ممن سواه مَن يحبه الله فتحبه في حب الله قدَرَه، وأدنى درجات حب الله هو الرجاحة القلبية لحبه على من سواه، فالرجاحة العملية لحب من سواه أو ما سواه ضعف في مظهر الإيمان، كاشفاً عن ضعفه في القلب.

ولأن المؤمنين بصورة طليقة تشمل إلى المعصومين العدولَ والفساق الذين دخل الإيمان في قلوبهم، والذين أسلموا ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم، بل والمنافقين، فالتنديد هنا موجه أولاً إلى الأخيرَين، حيث المنافق يحب غير الله أكثر منه علماً وتقصيراً، والمسلم الساذج قبله يحب هكذا قصوراً عن تقصير وجهالة، ثم إلى فساق المؤمنين حيث الفسق عملياً ترجيح لغير الله على الله في المظهر، كاشفاً عن ضعف الإيمان.

ومحور التنديد في مراتب الحب هنا أن يكون غير الله أحب إليك منه، لا لأن التسوية غير محظورة، وإنما لعناية مظاهر الحب بين الله وما سواه، حيث الفسوق عملياً هو مظهر من مظاهر الترجيح لغير الله على الله، وأما الحب قلبياً فأقل درجاته في حقل الإيمان أقل رجاحة لحب الله على ما سواه ومن ثم درجات إلى حب العصمة وعصمة الحب.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

ذلك فـ «من الإيمان كون الله ورسوله أحب إلى المرء من سواهما»[١] تقديماً لحب الله وعلى ضوئه حب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهكذا يكون «حب النبي من الإيمان»[٢].

ذلك حب الله أصالة وحب رسوله رسالة، ومن لزامات ثاني الحبين حب الأئمة من أهل بيته عليهم السلام وكما يروى عنه متواتراً: «عنوان صحيفة المؤمن حب علي»[٣] «حب علي براءة من النار»[٤] و«من مات على حب آل محمد مات شهيداً»[٥] «أساس الإسلام حبي وحب أهل بيتي»[٦].

وهذه الآية تنديدة شديدة مديدة بهؤلاء الذين ظلوا بعد الفتح بمكة مصلحيةَ الحفاظ على أموالهم وأهليهم خوف تهدُّرهما رغم التهدُّر من دينهم واستمرارية السلطة المشركة عليهم.

ذلك، ثم «لا تجعلن أكثر شغلك بأهلك ووَلَدك، فإن يكن أهلك وولدك أولياء الله فإن الله لا يضيع أولياءه، وإن يكونوا أعداء الله فما همك وشغلك بأعداءِ الله»[٧].

(١) مفتاح كنوز السنة نقلاً عن بخ - ك ٢ ب ٩ و١٤، ك ٧٨ ب ٤٢، ك ٨٩ ب ١، ك ٩٣ ب ١٠، مس - ك ١ ح ٦٦ - ٦٨، ك ٤٥ ح ١٦١ - ١٦٥، تر - ك ٣٨ ب ١٠، ك ٣٤ ب ٥٠، نس - ك ٤٨ ب ٢ - ٤، حم - ثالث ص ١٧٢ و١٧٤ و١٩٢ و٢٠٠ و٢٠٢ و٢٠٧ و٢٠٨ و٢١٣ و٢٢٦ و٢٢٧ و٢٢٨ و٢٣٠ و٢٥٥ و٢٧٥ و٢٧٦ و٢٧٨ و٢٨٣ و٢٨٨ ط - ح ٢١٣١.

(٢) المصدر نقلاً عن بخ - ك ٢ ب ٨، ك ٨٩ ب ١، ك ٩٣ ب ١٠، مس - ك ١ ح ٦٦ - ٧٠، تر - ك ٣٤ ب ٥٠ ك ٣٨ ب ١٠، نس - ك ٤٦ ب ٣ - ٤ و١٩ و٢٠، مى - ك ٢٠ ب ٢٩، حم - ثالث ص ١٧٢ و١٧٤ و١٧٧ و١٩٢ و٢٠٠ و٢٠٢ و٢٠٧ و٢٠٨ و٢١٣ و٢٢٦ و٢٢٧ و٢٢٨ و٢٣٠ و٢٥٥ و٢٧٥ و٢٧٦ و٢٧٨ و٢٨٣ و٢٨٨، رابع ص ٢٣٣ و٢٣٦، خامس ص ١٧٠ و٢٣٣ و٢٣٦ و٢٩٣ ط - ح ٢١٣١.

(٣) هي متواترة في عشرات من الروايات عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما في ملحقات إحقاق الحق فليراجع.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

(٧) نهج البلاغة (٣٥٢ ح/ ٦٣٦ عن الإمام علي عليه السلام.

وهنا سير تنازلي في الولاية أمام الله، ألّا تولوا الكافرين من هؤلاء، ثم لا يكونوا أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله وإن كانوا مؤمنين، فالآية السابقة للأولى، والأخرى للأخرى، توحيداً وطيداً لولاية الله ورسوله وحبه والجهاد في سبيله، تفضيلاً فضيلاً له على مَن سواه من نفس أو نفيس، فإن كل متعلق دون الله نحيس بخيس.

ثم ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ توعيد بمن يحب غير الله أكثر من الله مهما كان مؤمناً، فضلاً عن حب الكافرين من الأقارب أو تولِّيهم فإنهم - إذاً - حيَّات وعقارب.

و«أمره» المتوعد هنا يعم أمر الحياة لهم إلى أن يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1] ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾[2].

ومن هؤلاء - إلى الذين يأتون في آخر الزمان - هم الذين فتح الله بهم مكة المكرمة، فحين لم يهاجر جماعة من المؤمنين إلى المدينة تحبباً إلى أموالهم وأهليهم وتحفظاً عليهم فليتربصوا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ بمن يفتح الله بهم عاصمة الدعوة وأنتم بعدُ لازقون بها مخلدين إليها لازمين، رغم كرور الأمر بالهجرة عنها.

وذلك التجرد عن كل آصرة أمام حب الله يطالَب به الفرد والجماعة المؤمنة، أن يتصبَّغوا بصبغة الله، فرغم أنه شاقٌّ حسب الطبيعة البشرية، ولكنه سهل يسير على المؤمن الذي يخشى الله، ولا يخشى أحداً إلَّا الله.

فالتجرد في الله عن كل آصرة ووسيلة ووصيلة وفصيلة، عن كل نفس ونفيس، هو قضية الإيمان الصادق الأمين بالله ورسوله، فجهاد في سبيله.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٩.